مركز نماء للبحوث والدراسات
Nama Center for Research and Studies
namacenter

أوراق نماء

الطريق الطّـويل إلى النَّهضة الإسلامية

نِـداءُ (بيغوفيتش) وآماله

عدنان بن صالح

بسم الله الرحمن الرحيم

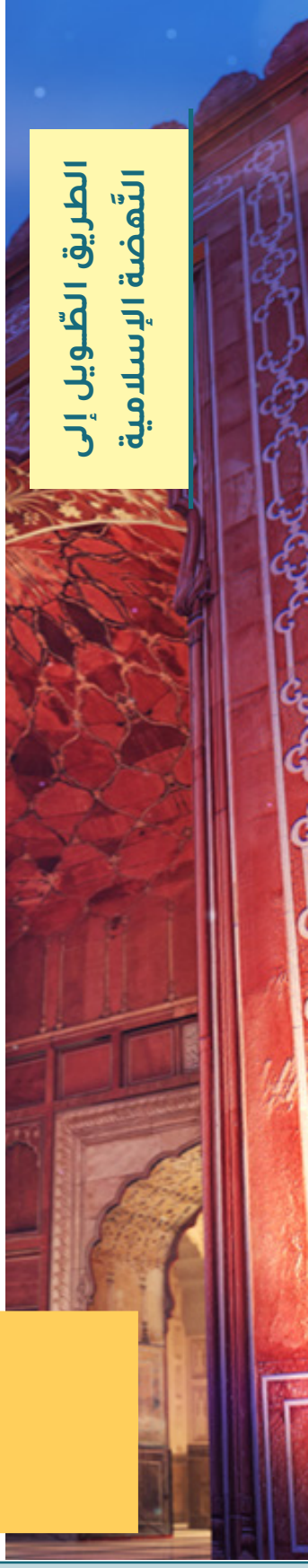

نِـداءُ (بيغوفيتش) وآماله

عدنان بن صالح[1]

✸ توطئة.. نصوصٌ صامِدة لأزمنة متجدِّدة:

ينطبِق على بعض النَّصوص الثَّرة ما يمكن نَعْتُه بـ«النُّصوص الصامِدة»، تلك النصوص التي تُقرَأ كلَّ مرَّة فتتجدَّدُ وتتمدّد وتصمُد، وتَصْلُح جُملةُ الرؤى المبثوثة فيها نماذِجَ تفسيرية لثوابِت ومتغيِّرات الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي والفكري للأمة العربية الإسلامية.

وكُـتُب المفكِّر البوسني المتميّز (علي عِزَّت بيغوفيتش) تندرِج ضمن هذا الصِّنف، لما تُقدِّمه من قراءات جادَّة لوقائع التاريخ ولمُتون الفِكر الإنساني، ولما تَبْذُله من جُهْدٍ للتأسيس لنسَقٍ من الأفكار والمفاهيم والتصوّرات إزاء الدين والحياة والناس والأفراد، ومِن محاوَلاتها القيِّمة إعطاءَ مضمون ثالث[2] للرؤية الحضارية للإسلام، مضمون يتجاوَزُ الرؤية التي تنظر إلى الإسلام باعتباره ديناً فحسب،

(١) باحث مهتم بقضايا الفكر الإسلامي والتاريخ. حاصل على الماستر من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، تخصص (تاريخ المغرب الراهن وتحديات بناء الدولة الوطنية الحديثة)، جامعة عبد المالك السعدي، المغرب.

(٢) لا نقصِدُ هنا ما عَناه في الفصل الرابع من كتابه (هروبي إلى الحرية) بقوله: **«الإسلام هو فَرضية الطريق الثالث بين المسيحية واليهودية»**، ولا مَا قَصَده من الفصل الحادي عَشر المعَنونِ به **(الطريق الثالث: خارج الإسلام)** من كتابه المفيد **«الإسلام بين الشرق والغرب»**.

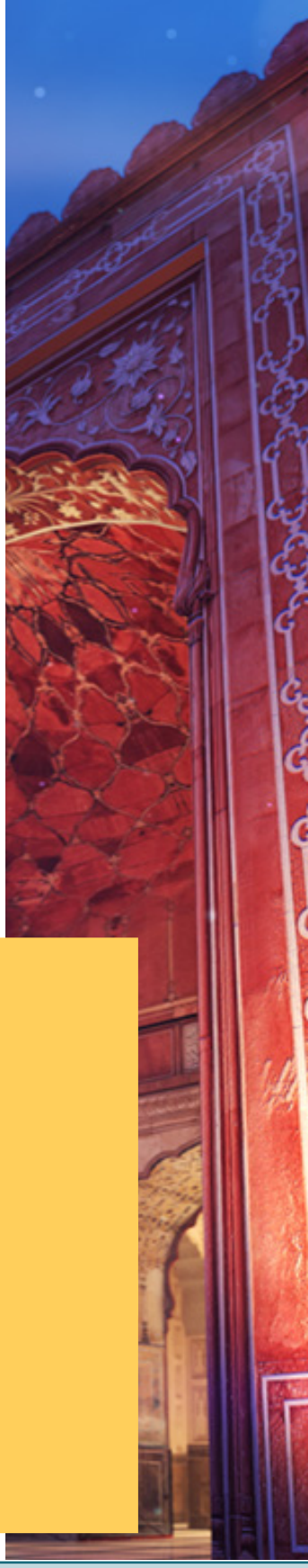

دين خمول وكَسَلٍ وانتهاء صلاحية، والرؤية التي تنظر إليه إسلاماً مُسالِماً وديعاً زاهِداً.

ففي «الإسلام بين الشرق والغرب» و«هروبي إلى الحرية» و«عوائق النهضة الإسلامية»: رؤى وتصورات ومُقاربات ولَفيفُ نَظَرٍ وفِكْر تجِد امتِدادها في المرحلة الشبابية للكاتب[١]، وأفكارٌ أوْدَت به في السّجون غَداة قيام الحكم الشيوعي في يوغوسلافيا، وهي أفكاره التي ظَلَّ يحيا من أجْلِها، وبقِيَ حريصاً على تبليغها، وإعادة النَّظر فيها، وتوسيع مجالِ أفكاره لتصِل إلى دُول وشعوب العالم الإسلامي، والعالم الغربي أيضاً[٢].

وفي «البيان الإسلامي» -الذي أثَار زوبعة في الإعلام الغربي بسببٍ من تحْرِيضٍ غير أخلاقِي ولا مُبَرَّر قام به المتطرِّفون الشيوعيون، فاتَّهموا صاحِبه بالتأسيس للأصولية في قَلب أوربا، وتأليب المسلمين ضدّ المعسكر الاشتراكي- تتجلّى مهاراتُ ومَقْدُرات مُفكِّرٍ لا يشكّ اثنان في تميُّزِهِ وموهبته وبراعته. إنه صَرخته/ندائه ودعوته التي صدَحَ بِها مِن قَلْبِ منطَقة أُحْصِرَ فيها الإسلام وحوصِرَ المسلمون[٣] للاقتناع بأحكام وتعاليم الدين، والإيمان بالإسلام دينَ قوّةٍ وثقافةٍ

(١) أكّد المفكّر البوسني المسلم (علي عِزّت بيغوفيتش) في بعض الحوارات والمقابلات التّلفزية التي أُجْرِيت معه قَبل رحيله؛ ولَعه منذ مرحلة شبابه بالمؤلفات ذاتِ التأثير الكبير في مجالات الفلسفة والفكر الإنساني والتاريخ، وقد انصبَّ اهتمامه على قراءة أعمال (إيمانويل كانط) و(مايكل أنجلو) و(داروين)، و(جورج هيغل) و(إنجلز) و(كارل ماركس) وغيرهم، فتملّك ناصية اللغة الألمانية والإنجليزية إضافة إلى اللغة العربية والبوسنية. وظلّ كذلك طوال حياته غاصًا في دراسة أمهات =المراجع، وكُبرى النظريات والأفكار، فتشكّلت لديه ثقافة علمية واسعة، ودراية بالحضارتين العربية الإسلامية والأوربية الغربية. الأمر الذي بوّأه مكانة مُعتَبَرة بين مفكّري القرن العشرين، ولا يزالُ تأثير كتاباته وأفكاره ساريَ المفعول، يُرجَع إليه إلى يومنا هذا.

(٢) فقد تُرجِمَ كتابه **«الإسلام بين الشرق والغرب»** أوّلَ ما تُرْجِمَ إلى الإنجليزية، وبدأ انتشاره من كندا، ليُترجَم إلى العربية ثمَّ يجدَ طريقه لاحقًا إلى العالم العربي والإسلامي.

(٣) كانت البوسنة والهرسك واقِعة بين كُمّاشة الكروات البروتستانت والصّرب الكاثوليك والشيوعية العاتية، وخُيِّرت بعد تفكُّك الاتحاد اليوغسلافي على الانضمام لكرواتيا أو الانضمام لصربيا دونَ حقّ في اختيار المصير. وعانى لذلكَ المسلمون معاناة أليمة، بين اضطهاد وظُلم وتشريدٍ ومحنة واعتداء عسكري سافِر تابَعه العالم أجمع..؛ وباستِماتة شبابها وجنودها وبَسالة المجاهد البوسني الكبير (علي عِزّت بيغوفيتش) ويَقَظَته وكُتبه التي أعادَت رَبْط البوسنيين بإسلامهم؛ خَرَجت جمهورية البوسنة والهرسك حُرَّة منتصِرة مُسلِمة ظافِرة من ملحمة ومحنة شديدة.

وحضارةٍ وسياسةٍ وعَطاءٍ وبناءٍ، دعوة للمجتمع والقادة والأفْراد لأداء رسالَتِهم المنوطَة بهم، لاستِئناف الدَّور والمهمّة الحضارية، للنزول إلى ساحة الأداءً معاً على طريق النهضة الإسلامية الطويل والشاق.

و«البيان» على صِغَر حجْمِه، عريقٌ في أصْلِ مَبناه وقاصِدٌ في معناه، مُتراصَّةٌ قضاياه، ومتماسِكَةٌ مضامينه. والعودةُ إلى ما كَتَب (ع.ع.بيغوفيتش) وهذا النصّ بالخصوص؛ هي عَودة وجودية، بمعنى انطلاقها مِن الواقع العَيْني للأمّة والعالم العربي الذي يصيرُ اليوم إلى مزيدٍ مِن التفكك والتجزئة وتسلُّطِ الغرب والشرق وأوربا علينا، نَهْشاً للخيرات والثروات الوطنية وتدخُّلًا في القضايا الداخلية وسَلْباً لقوامة السُّلطة العربية. وتشهد مناطِق أخرى[1] ما عاشَته البوسنة سابِقًا، مِن تشريدٍ وظُلمٍ وانتهاكٍ للسيادةِ وحَرْبٍ طائفية ممقوتة وتحايُلٍ دولي.

بَعضُ الكُتَّاب يمتازون بخاصِية القراءة الكثيرة والتَّعبير القليل، أو بعبارة أخرى، يَقرأ كثيراً ويكتُب قليلاً، ومِن قِلَّته تِلك؛ تَظْهَر أمَارات النبوغ في تَقديم عُصارة قراءاته الموسَّعة ونظراته في الفكر والحياة، ولا وجودَ لكاتِبٍ جيِّدٍ إنْ لَم يَكن قارئاً جيّدًا. وصاحِبُنا الأستاذ (علي عِزَّت بيغوفيتش)[2] مِن هذه القِلَّة النابِغة، المُجِدَّة المُتْقِنة، الذي أتْحَفَنا بمُصنَّفاتٍ[3]

(١) يعيشُ (اليمن) اليوم حرباً وإنهاكاً وتجويعاً ومأساة إنسانية أشدّ ضراوة مما تعرضَّت له البوسنة في التسعينيات، ومناطِق أخرى من عالمنا العربي والإسلامي تعانِي من الطائفية ودَمار الحروب والفقر والتشريد والاعتداء الاستعماري الجديد (بورما، فلسطين، الصومال، ليبيا، سوريا، أفغانستان..)

(٢) أشْهَر من نارٍ على عَلَم، مفكِّر وكاتب مُجيد، ومحاميٌ حاصل على دكتوراه الدولة في القانون سنة ١٩٦٢، دافعَ عن سيادة بلاده وحقها في الاستِقلال، وكافح إلى جانب أبناء شَعبه في ملحمة نضالية مَجيدة. وُلِد الدكتور علي عِزّت بيغوفيتش يوم ٨ من أغسطس ١٩٢٥، وتوفيَ يوم من ١٩ أكتوبر ٢٠٠٣، بعد حياةٍ حافِلة بالعطاء وقِيم البِناء والنضال الديمقراطي، وخِدمة الإسلام. ويُعَدُّ بالنظر إلى ما خلَّفه من مؤلَّفات قيّمة، ومسيرة غنية بالتجارب والكفاح والمزاوَجة بين المدارسة والممارسة والعمل السياسي؛ رمزاً فِكريا كبيراً وأبرز مُثقَّفي وسياسيي القرن العشرين.

(٣) منها: كتابه الرائد: **«الإسلام بين الشرق والغرب»**، و**«هروبي إلى الحرية»**، و**«عوائق النهضة الإسلامية»**، و**«البيان الإسلامي»**، وفيها جميعاً يحضر الإسلام/الدين الإسلامي وقَضايا المُسلمين، وتَظهَر شخصية علي عِزَّت متجاوِزَة حدود الإقليمية البوسنية والانتماء إلى مُسلمي البوسنة، وتخرُج لآفاقٍ أرحَب، إنها أمة الإسلام والعالم الإسلامي. وذاك ما نلمَسُه بجلاءٍ أكبرَ في كتابه الموسوم بـ **(البيان الإسلامي)**.

وكُتيباتٍ تدلُّ على عُلُوِّ كَعبه في استيعابِ الظواهر الكبرى من حوله والنّفاذِ إلى عوائق النَّهَضَات ومعضِلات الحركات وإخفاق النظريات وبواعِث النهوض في الأمم والمجتمعات، وَمَقْدُرَته العالية على تقديم نماذج تفسيرية لما عاينَ وفهِمَ واستنتَج.

ومما يجعل نُصُوصَهُ جديرةً بالقراءة والتأمُّل والتعلُّم واستِخلاص الفوائد؛ القضايا التي أتى على مُدارَستِها بروح المُسلِم المجتهِد الغيور، وبقريحةِ المثقَّفِ الحذِق الماهر، والإشكالات الصلبة والقديمة - المتجدِّدة في العالم الإسلامي، مِن قَبيل: **(الوحدة، وجود مجتمع إسلامي منظّم، الاستثمار في الطاقة الروحية والأخلاقية الكامنة، خوض طريق العمل والتضحية والكفاح المشترك، استمداد الدعم من بركة الله ورضا الأمّة دائمًا، معضَلة التخلف وضعف التعليم..)** وهِيَ؛ إذ يتأمَّل فيها القارئ والباحث وابن كُل قُطر عربي وإسلامي؛ يجدِها ذاتُ القضايا والإشكالات التي لا تزالُ تُسيل مِدادَ الكثيرين وتَذْهَب في سبيلها أفئدة المؤمنين وتُعقَد لها الندوات والدَّورات. ولا يَفوتنا أنْ نستَحْضِرَ أنَّ إصدارات الرجل مراراً ما كانت تفتَحُ الطريق -كما حصل غداةَ نشر (البيان الإسلامي) وتداوُله- لاعتقال الأستاذ (علي عِزّت)[1] سنة ١٩٨٣، ومحاكَمَته بأربع عشرة سنة سِجنًا نافِذة، بما يجعل مِن الكتاب نصًّا صامِدًا ومن صاحِبِه أحَد الرموز الفكرية والثقافية والسياسية الخالِدة في أفئدة الشُّجعان.

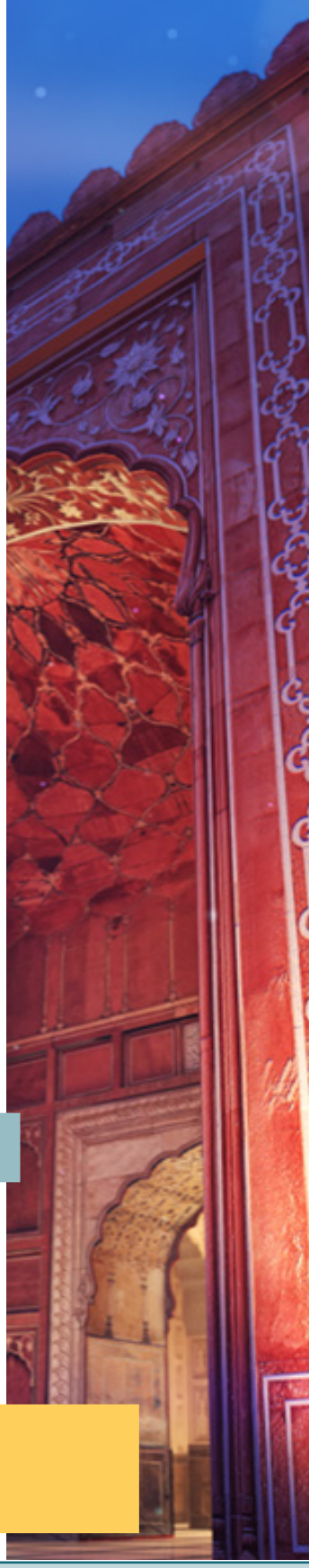

نداءٌ للأحياء.. صرخة العربِي وزَفرة المُسْلِم:

يتجلَّى للقارئ عند الوهلة الأولى لدى (بيغوفيتش) ذلك الفَهْم الناضج العارِف بطبيعة أحوال بلاد المسلمين، وبالاعتزاز الكبير بالتاريخ الزاهر والإمكانات الهائلة لدى العالم الإسلامي، ودرايةٍ كذلك بمساعي الآخَر العامِل على الهدْم

(١) سَبَق أن اعتُقِلَ سنة ١٩٤٩ على خَلفية اتّهامِه بنشر الإسلام عن طريق جمعية غير مرَّخصة كانت تحمل اسم (نادي المُسلِمين الشُّبّان)، ثمَّ اعتُقِل ثانية سنة ١٩٨٣ على خَلفية نَشْرِ كتابِه (البيان الإسلامي)، وحوكِم بـ ١٤ سنة سجنا نافِذاً، قضى منها خَمْسَةَ أعوامٍ.

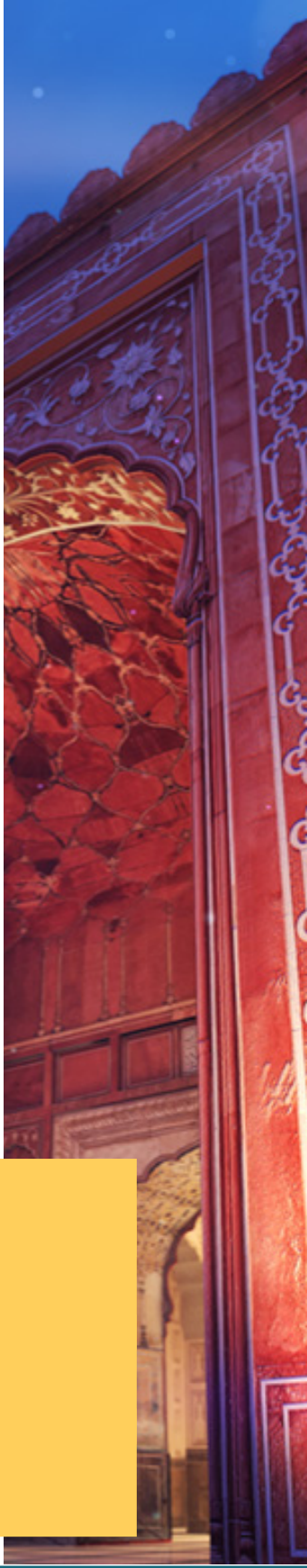

والتفكيك والجَوْس خِلال الدّيار. لذا يُفْصِح النص/البيان عن مقْصَدِه، إنَّهُ رِسالة مُوجَّهة إلى المسلمين بصفة خاصة، ونداء إليهم ليَكْرَعُوا مِن مَعين إسلامِهِم ما به يضطلعون بواجباتهم تجاه أنفسهم ومُحيطهم والإنسانية. وهو في جانِبٍ منه، الكِتابُ والكاتب: امتِداد لصَرخة الإصلاح العربي منذ مطالع القرن العشرين.

ليسَ ثَمَّةَ مِن مخرج لاستعادة المبادرة وتجاوُزِ حالة التخلف والفقر والذّل والقَهر إلا مِن خلال تحديد الطريق المؤدية إلى الهدف، «إنَّه طريق تحقيق الإسلام في جميع الميادين، إنَّه طريق تطبيق الإسلام في حياة الفرد والأسرة والمجتمعِ بتجديدِ الفكر الإسلامي وإيجاد مجتمع إسلامي من مراكَش إلى إندونيسيا»[١]، وليس من التهويل ولا الافتئات على الواقع والحقيقة جعْل هذا الهدف نُصب العين العربية - الإسلامية، ولا سيما إذا اعتَبَرْنا أنَّ قَدْراً مِن هزائمنا ومظاهر السلبية والخمول فينا مَردّها لانحرافنا عن منهج الإسلام، وهو الانحراف الذي طالَما كان محطَّ نقْدٍ وتذكيرٍ من لدُن رجالات الإصلاحية العربية[٢]، ويُوَجِّه الكاتب عناية أنظارنا للتاريخ[٣] لنفهم ما جَرى، ومنطِق التحولات فينا، ومن حولِنا.

اختيارات الأستاذ (علِي عِزّت) لمفاهيمه وعباراته وعناوين مباحِثِ وفُصول كُتُبه دقيقة ودالّة، ينتقيها بعناية شديدةٍ تُصيبُ كبِدَ السياق والمَساقِ وتخُدم الفكرة العامة للمرادِ تبليغه. ولا يُحَمِّل «بَيَانَهُ» فوقَ طاقته، ولا يَسِمُ ما يجيء فيه «جديدًا»، وإنّما هو استكمال لصرخة العربي[٤] ووفاء

(١) (بيغوفيتش) علي عِزّت: **«البيان الإسلامي»**، منشورات الراية، مطبعة الساحل، الرباط، الطبعة الأولى ١٩٩٤، ص: ٧.

(٢) في المشرق العربي: (جمال الدين الأفغاني) و(محمد عبده) و(رشيد رِضا) و(عبد الرحمن الكواكِبي)، وفي الغرب الإسلامي (الطاهر حدّاد) و(البشير الإبراهيمي) و(الحجوي الثعالبي) و(علال الفاسي).

(٣) فالإسلام حَسْب الكاتب قوّة دفع خلاقة، وفكرة حيوية حرّكت شعوبنا على مدار ١٤ قرنًا، وعامِل أساس في مجال الثقافة والسياسة عندنا، ومنه وإليه وفيه صلاح معاش العباد ومآلهم الأخروى.

(٤) التعبير هنا لنا، ونقصد به: الصرخة التي عبّر عنها الإصلاحي العربي الكبير (عبد الرحمن الكواكبي) في كتابه الشهير **«طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»** بقوله: **«وهي كلمة حَقّ وصرخة في واد، إنْ ذَهبتْ اليوم مع الريح؛ قد تَذهَب غدا بالأوتاد».**

لمكافحين سابقين ومجايلين[1] له مِن أجْل الإسلام، ومُطالَبة بالانتقال مِن مستوى الأفكار المجرّدة إلى مستوى التخطيط والعمل والإنجاز.

ثلاثُ كلماتٍ جامعاتٍ قاصِداتٍ مُعبِّراتٍ متحسِّراتٍ «**تَخَلُّف الشعوب الإسلامية**» تتصدَّر الانشغال الذِّهني والثقافي والواقِعي للدكتور (بيغوفيتش)، حتى ليخالُ للقارئ ألا يُتِمَّ القراءة، إذِ القَضيةُ قَد فُصِلَ فيها القَوْلُ ودَلَّ مختَصَرُ الكلام على واقع الحال. ولكن علَامَ صاغَ هذا الحُكم الجامِع -حَتمية تَخلُّف الشعوب الإسلامية-؟

إنَّ المقدُرَة الفائقة التي نلْمَسُها لدى كاتِبنا عندَ دفاعه عن الإسلام المُنَزَّل، مأتاها مِن استِيعابه الكبير للكليات الأساسية للشريعة ووعْيٍ لرسالة الدين في التاريخ، ولإيمانه العقلاني العميق بكونِ تعاليم الإسلام تُقِرُّ بوجودِ الإنسان كصِلة بين العالمين الطبيعي والروحي، وبالذّهول عن هذهِ الوِحدةِ؛ فإنَّ الدِّين الذي يعتَقِده المسلمون مُؤَدٍّ لا شكَّ إلى التخلف والانحطاط ورفض الحيوية والنشاط.

لتَصِل إلى خلاصَةٍ تتعرّف فيها على أسباب الضعف الرئيسية وتُميِّزُ فيها بين فُسطاسين من الناس أصابَت أفكارَهُم وأفعالَهُم فاعلية التجديد الإسلامي في الصَّميم: يتطلَّب الأمر معرفة شامِلة ورصينة، ذاكَ ما نراه عندَ أوَّلِ «الغيثِ» في «بيانِ بيغوفيتش»، فالكِبارُ في عالم الأفكار يَضَعُونَ أفكارَهُم الثَّرَّة في خِدْمةِ المعنى عندَ أوَّلِ سَطْرٍ يكتبونه. حَقاً؛ إننا إزاء رجُل تجاوَز حالة «الإيمان» إلى «التأمُّل والاستِخلاصِ» وتقديمِ قراءاتٍ لواقع بلدان العالم الإسلامي، رجل يجمع بين الفكر وأصول الفقه وفقه التاريخ، ويأخُذ زِمام المبادَرة ليُوجِّه هذا النداء للأحياء في العالم العربي والإسلامي.

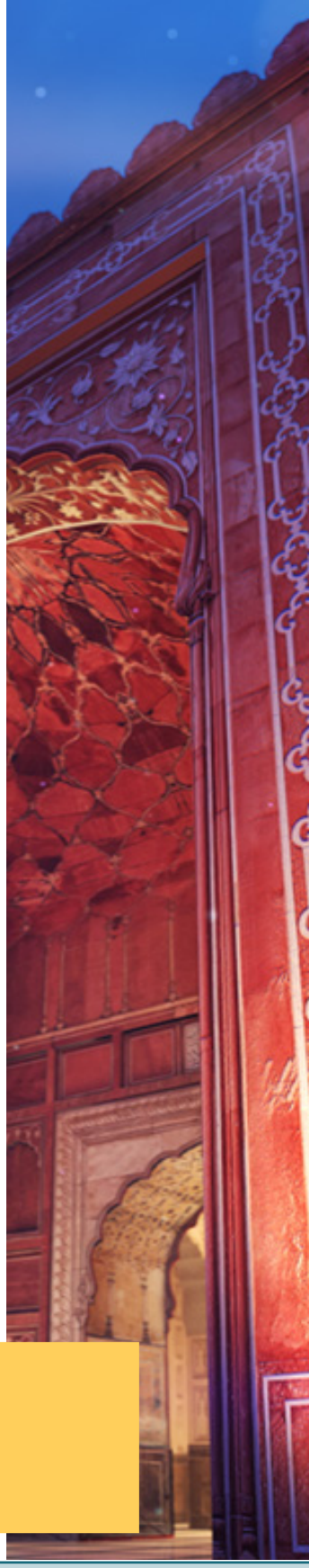

(١) حرّر الكاتب نصّه هذا بتاريخ يوليو ١٩٨٠، وبالتالي فإنّ المعطيات الواردة فيه، والأشخاص والرموز المحال عليها والمشار إليها، والقضايا التي يثيرها؛ إنما هي في جانب كبير منها ابنة وقتِها وسياقها. إنما قَصَدْنا من الوقوف عليها؛ إطْلاع مَن لَم يتعرَّف بعدُ على فِكر الأستاذ علي عزّت بيغوفيتش وتقريبُ جانِبٍ من أفكاره القيمة ومقارباته ورُؤاه، والانتفاع بها في فَهمِ ما جَرى.

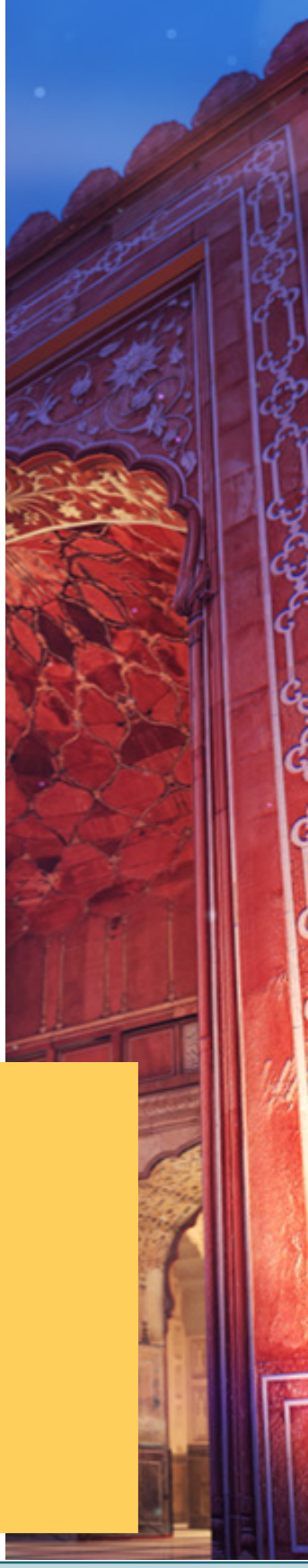

هذا العالم الممتدُّ من مراكش إلى سومطَرة اعتَرضته تحديات ومُهدِّدات في أثناء قرونٍ من نزول الرسالة، أَفْرَزت مناطِقهُ حالاتِ هَدْمٍ داخِلِي تأتَّى من الجهل والتخلُّف والتأخُّر عن رَكب العِلم والإغراق في تصوُّفِ سُكْرٍ[١]، إلا أنَّ ما يُعْنى بِهِ (بيغوفيتش) هو رَصْدُ تلك الكوابح التي وُضِعَت أمام مسيرة وأفُق التَّجديد الإسلامي مِن قِبَلِ فِعْل فَريقين[٢]:

- المحافِظين المترمِّتين الذين أوْدَوا بالإسلام والتّجديد الإسلامي إلى الجمود.
- والعصريين المُشْتَطِّينَ الذين لا يتناهَونَ عن تغريبهِ.

والعالم الإسلامي وإنْ لم تَكن لنهوضهِ علاقة بقيام التجديد الإسلامي؛ فإنَّه في سَعْيِه للنهضة وشروعِه في تجاوُزِ حالَة الانْسداد؛ غالبًا ما لا يُقيم اعتبارًا للفريقين معًا، ويرى في رؤاهما وتأويلاتهما واختزالهما للدين وتشويههما لتعاليمه؛ أفعالًا صادِرة عن كائنات جامدة كابحة للمسيرة، عابِدَة للمستوى[٣] الذي وصَله الغرب، وغير مُسَاعِدة على ثقافة البِناء. وفي الوقت الذي يُنَبِّئُنا تاريخ بعض الأمم والشعوب أنّ هلاكها وموتها الحضاري كان في تذبذبها إزاء الحضارة الغربية بين «التقليد منها» و«رفضها»؛ تُصِرُّ طَائفتا «المحافظين المترمّتين» و«العصريين التّبعيين» في

(١) يميّز الدكتور (أحمد الريسوني) في قراءته لمسار وتاريخ التصوف في العالم الإسلامي بين ما أسماه (تصوُّف صَحْوٍ) و(تصوّف سُكْرٍ). لمزيدِ فائدةٍ يطالَع كتابه «الاختيارات المغربية في التديّن والتمذهب»، منشورات دار الكلمة المصرية، وحركة التوحيد والإصلاح، الطبعة الأولى ٢٠١٧.

(٢) يختلف هذان التياران عن بعضهما، لكنهما يشتركان في أمر واحد: رؤية الإسلام دينًا بالمعنى الأوربي للكلمة، و«**انطلاقًا من الدعوى بأنّ الإسلام دين؛ يَستَنتِج الجامدون أنّ الإسلام لا ينبغي له أنْ يُنَظِّم الحياة الدنيا، ويَستَنتِج العصريون أنّ الإسلام لا يستطيع ذلك، والنتيجة العملية في كِلتا الحالتين؛ واحدة**»، انظر: «البيان الإسلامى»، مرجع سابق، ص: ١٢.

(٣) للكاتِب جهاز مفاهيمي خاص، إذ يقف الباحث والقارئ لكُتُب علي عِزّت بيغوفيتش على مفاهيم ومُصطَلحات يستعملها ويُوظِّفها بطريقته الخاصة. وفي كتابه هذا (البيان الإسلامي) قُمنا بِجرْدِ بضعة مفاهيم، منها: **«عِبادة المُستوى»، «الطاقة الساكنة»، «العصريون المُشْتَطُّون»، «الاقتصاد الانتِشاري»، «الرأسمالية الاحتكارية»، «المُحال المُزدَوَج»، «المجتمَع الاعتباري»، «دواوين التفتيش والإرهاب»، «الإسلام النّاهض»، «الإخفاق الأخلاقي»، «هوس حتمية التاريخ»، «الجيل الإسلامي الجديد»، «القومية اللّاقومية»، «التَّفَرْنُج».**

العالم الإسلامي على البقاء في منطقة لا تملك معها جوابًا عن هذا الإشكال المصيري.

(بيغوفيتش) المُثْقَل بآلام أمَّتِه.. قضايا وهموم العالم الإسلامي:

نَلمس لَوْعَة الكاتب فيما يمكن أنْ نُسَمِّيه «القابلية للتّأَوْرُب» لدى كثير ممن ادَّعَوا الإصلاح والتحديث والتقدم في العالم الإسلامي. بل نتحسّس موطِن الإشكال من هذه الناحية كونها أثَّرت في «تَخلُّف المجتمعات الإسلامية». فالتبعية[1] للنموذج الأوربي وقْتَئذٍ طَغى وفَشا، وأضاعت الأمةُ مِن الزَّمنِ والجُهْدِ والكَدِّ العملي والذِّهْني ما لم تَجْنِ طائلاً من ورائه. يَعْقِد الكاتِب المقارَنات، ويَأسفُ لمآلات الإصلاح في كَثير من بلدان الحوض الإسلامي، بل لكثير من الاستقلالات[2]؛ التي لم تكن وطنية، ولا حقيقية.

تتصاعد لوعة الكاتب فيَصدمنا متسائِلًا: إلى أيّ حدٍّ نحن مسلمون؟ سؤال كأنما ينبعث فجأةً، لكنك لا تذهل عن بنائية النصوص وتماسُك فقراتِ مؤلَّفات (عِزَّتْ بيغوفيتش)، فَتَرْجِع القهقرى لِتَراهُ (عندَهُ) أَحَد تجليات «أسباب الضعف» التي عدَّدَها. لأنَّنا «مُستَعْبَدون» و«غير متعلِّمين»، و«فُقراء»، و«مجتمعاتُنا منقسِمة على ذاتها»؛ هذه عناصر إجابة بيغوفيتشية. وهي وليدة سبب آخر مِن وجهة نظر الكاتب؛ فُقدان التمسّك بالقرآن[3] باعتباره المصدر الأساسي لأيديولوجية الأمّة وللتطبيق الإسلامي، وبالتالي فَقَد الكِتابُ/القرآن «سُلطانَ القانوني واكتَسَب قُدسِية الشّيء»[4]، وتُجوهِلت مبادئُه في الحياة العملية للمسلمين..؛ فكان التغرُّب والتخلُّف والانقسامية.

(١) يُعِدُّ الكاتِب تَبعية بعض الأقطار بعد استِقلالها لأوربا، وإهمالها لنُظمُ الإسلام وتعاليمه ولهوية الأمة ومقدَّساتها؛ حالة من العودة للعبودية الطوعية.

(٢) يرى أنه لا استِقلال للأوطان دون استِقلال الإنسان، على مُستوى الفكر والوجدان.

(٣) قال الحق سبحانه: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ سورة الزخرف، الآية: ٤٣، وفي آية أخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝١٧٠﴾ سورة الأعراف، الآية: ١٧٠

(٤) نفسه، ص: ١٩.

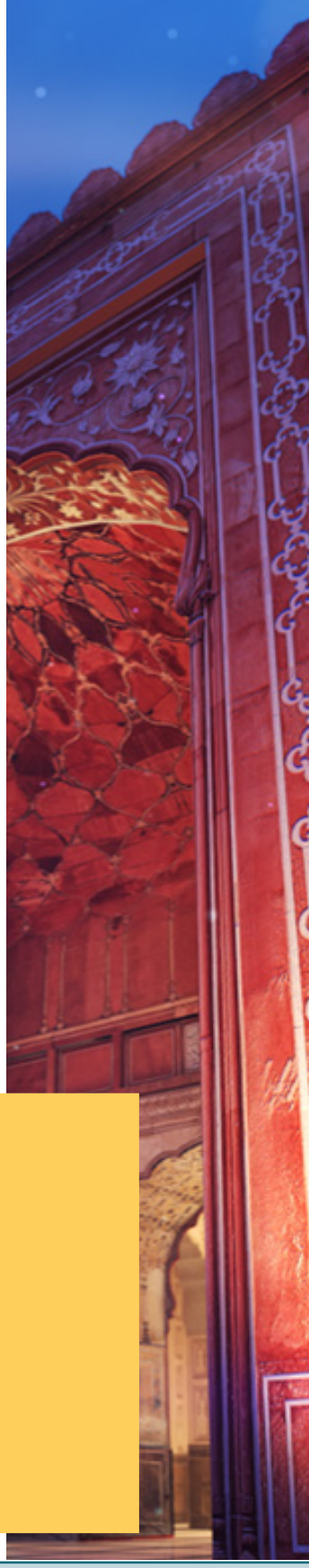

مِن أسباب الضعف التي يَضَع عليها الكاتب أصبعه، مُجلِّياً لنا عن إدراكٍ للتناقُضات المركزية في جِسم الأمة والعالم الإسلامي، نظام «التربية والتَّعليم»[١]، الذي يشكو مِن اختلال وتبعية برنامجية ومرجعية، ووجود فئات متعلِّمة على غير الوجه الصحيح وفئة غير مُتعلِّمة على وجه الإطلاق. ثُمَّ ذلكم الفصام النّكد بين الجماهير وطلائعها المثقفة والعسكرية والسياسية، وعدم اكِتراث العامة بالإصلاحات التي دَأَبَت قياداتها على التغنِّي بها ووعْدِ الناس بتحقيقها. مَربِط الإشكال واضح في ذِهنية الكاتِب؛ فالنّهضات لا تَنْشأ ولا تَقُومُ إلَّا مِن جِهَة اتِّصال وتعاطُف واتِّفاق بين مكونات الأمة وقادَتها، وما دامت الشعوب هي «القَلب والدَّم لِكُلِّ حركة صميمة»،[٢] وشُعُوبنا الإسلامية غير قابِلة لأيِّ إصلاحاتٍ أو نهضاتٍ تُخالِف الإسلام أو القَبول بوجودِ قادةٍ يَأتونَ مِن الأعمال ويسْتَنُّونَ من السياسات ما يَضادّ الإسلام ويَحُدُّ مِن فاعِليته؛ إذَن فحُدوث عَكس ذلكَ من الحَتْمِي أنْ نحصُدَ مِن ورائه رُدودَ فعْلٍ غير محمودة وانتكاسات وتَعميقٍ للتخلُّف ودِفاع الإسلام الشعبي عن الدّين والتديُّن. تَبْدُو مَثيل هذه الاستِنتاجات والنَّظرات صامِدَةً، لها قابِلية تفسيرية وتُجدِّدُ حضورها آتِيةٍ إلى زَماننا هذا، فالنّاظِر في أحوالِ إخفاقِ قرنٍ مِن أحلام وطموحات الإصْلاحية العربية[٣] وتَوَارِي الشِّعارات الاشتِراكية وبرامجِ القوى القومية ورِهانات قادة الانِقلابات العَسكرية إلى الوراء، واستِمرار الفِصام بين الإصلاح الفكري والإصلاح المؤسساتي وبين جماهير الشَّعب وبرامِج قادتها، التي خاصَمت[٤] فيما خاصَمَتْه؛

(١) يؤكِّد جازِمًا: **«إذا لم نَفشَل في برنامج التربية؛ فإننا لن نفشل في أيّ حقل آخر»**، **«البيان...»**، نفسه، ص: ٣٨، ويرى أنَّ حكومات العالم الإسلامي مُطالَبة في الاستِثمار في التعليم باعتباره أكثر الاستِثمارات جَلْبًا للرِّبح.

(٢) **«وبدون مُشاركة عامة الشعب أو على الأقل بدونِ موافَقَتِهم فإنَّ كل عَمَلٍ يَبقى طافِيًا على السَّطح وبدون قوة ضارِبة، وأما خُمول الجماهير فيُمكِن التغلُّب عليه إذا كانَ راجِعاً إلى مُجَرَّدِ التجنُّب الفِطري للكَدِّ وبذْل الجهدِ والتعرُّض للخطر، وليس بالإمكان التغلُّب عليه إذا كانَ يُعبِّرُ عن الرَّفض بنَفس المَثَل الأعلى للكفاح؛ لكونِه مُضادّاً لصميم إرادة الشعب وإحساساتهم»**، / انظر: **«البيان...»** نفسه، ص: ٢٢

(٣) ومنه فُقدان الأيديولوجية العربية المعاصِرة.

(٤) نستحضِر هنا: (كمال أتاتورك) في تركيا، و(الحبيب بورقيبة) في تونس، و(الشاه محمد بهلوي) في إيران؛ وهي تجارِبُ مليئة بمحاولات القَطع مع تراث الأمة ومخاصمة الدين وقَمْع التديُّن والإنزال التشريعي للقانون الوضعية على الحياة المدنية بتلك الدول، ورِعاية التَّغريب، ومحاربة اللغة العربية، والسعي للتحديث القسري والعَصرنة على النمط الأوربي والأمريكي.

الهوية والدين، وأرادَت إقامة بُلدانٍ منزوعةِ الجذور والامتداد في تُربة وتاريخ الإسلام، وتقتاتُ على تَبعية وتَغريبٍ فَجَّيْن، واقتِحامٍ لعالم الحداثة دونَما وعْيٍ بمنطِق التاريخ الذي يُحدِّثنا عن وُجودِ حداثات متعددة، وأنَّ ما تمثِّله الحداثة الحضارية المتغلِّبة في عالم اليوم ليسَ إلا تعبيراً لمسارِ حداثات طويل أَسْهَمَت فيه شعوبٌ وأمم وأفكارٌ ورموز -كنا من بينها-، وستَظَلُّ تِلكَ سِيماؤُها، والمُشتَرك الإنساني بينها، دونَ إلغاء الخصوصيات المحلية، ومُقدِّمات انطلاق كل أمّة، ومصادِرُ هويتها وأيديولوجيتها. وأُمَّـتُـنا ما كان ولن يكون لها أنْ تَتَحرَّك وتُنتِج وتُوافِق مساعي قادتها للنهوض والصعود دونما تَبَنٍّ واعتمادٍ للفكرة المحرّكة والمرجعية الدافعة المطابِقة لروحها وهويتها ورغباتها؛ إنه الإسلام.

تكاملية النظام الإسلامي والحكم الإسلامي؛ مُقاربات (بيغوفيتش) العقلانية والواقعية:

إتماماً لبنائية «النّداء/البيان»، وانْصِهاراً للأفكار في بوتقة واحِدةٍ، بِيئَتُها: العالم الإسلامي، ومنطلَقها الإسلام، ومَقصِدها استِئنافُ الدور تلمُّساً للنهضة الإسلامية المنشودة، هنا يظْهَر نبوغُ (عليٍّ) المعرفي، وسَعَته في الاطِّلاع والإدراك لطبيعة النظام الإسلامي وقضاياه في السياق المعاصِر، حتى إنه يَضَع لِذلكَ تعريفاً يصيرُ مع الوقت عُدَّة الباحثينَ للتعريف بالنظام الإسلامي إلى جانِب لَفيفٍ من تعريفاتٍ أخرى. فهْوَ عندَهُ «وِحدة الدين والقانون، ووحدة التربية والقوّة، ووحدة المُثُلِ العليا والمصالح، ووحدة المجتمع الروحي والدَّولة، والتوفيق بين التَّطوُّع والإجبار»،[١] كلماتٌ جامِعات لَو أتَيْتَ على بَحْثِ متفرِّقاتها في مُختلِف التخصصات الإنسانية والاجتِماعية لما عثرتَ عليها بهذا العُمق والسَّعَة والأصالة. وهو بهذا التعريف/التقديم يجعل النِّظام السياسي قائمًا على التركيب، التركيب أو الثُنائيات

(١) (بيغوفيتش) علي عِزّت: **«البيان الإسلامي»**، مرجع سابق، ص: ٢٦.

المتقابِلة[1] التي نجِدُها تحكُمُ كثيراً من مضامين كتابه القيم (الإسلام بين الشَّرق والغرب)[2]، ومتوقّفًا على شرطين رئيسين:

- المجتمع الإسلامي؛ وهو بهذا المعنى محتوى النظام الإسلامي.
- والحكم الإسلامي؛ وهو إطار وشَكْل ذلك النِّظام. وهو فوق هذا كلّه؛ نَسَق.

ليس في منطِقِ (بيغوفيتش) محاباة المسلمين ولا إرضاء العالم الإسلامي -وهو منهما وإليهما-، ولئن كانَ قد وجَّه نداءً إلى ضميرهم وإلى رُقعتهم الجغرافية الممتدة من طنجة إلى جاكرتا؛ فلِكَيْ يُنبِّهَهُم، ويُـثِـيـبَهُم إلى الرُّشد الفَهْمِي والعملي، وإلى عدم التذبذُب في الموقف. فبالنِّسبة إليه؛ لا معنى لقيام مُجتمع إسلامي دونَما حُكم إسلامي، ولا مَعنى لوجود فَرْدٍ مُسلِم ما لَم يعمَل هذا الفرد على إيجادِ بيئة إسلامية لنفسه ولأمّته، والمجتمع الإسلامي عنده ليس مَن تَعَدَّدت أرقام المنتَمين إليه؛ بل هو مجموع المسلمين المُلتَزِمينَ بالإسلام أو (جماعة المُؤمنينَ المُنَظَّمين)، ولا مَعنى لقيام حركة سياسية مِن دونَ أنْ تَكون إسلامية أصيلة، إذْ مُقتَضى الأمْر عندَهُ كَون الإسلام فلسفة وأخلاق وأسلوب وبيئة ونظام وسياسة؛ وليس مجرّد دين.

كثيرةٌ هي قضايا النظام الإسلامي[3] الجديرة ببحثِها

(١) من قبيل: (الإنسان والحياة - الثقافة والحضارة - الدين والثورة - الواجب والمصلحة - التدريب والتنشئة - الأخلاق والعقل - الدراما والطّوبيا - المجتمع والجماعة - الأفكار والواقع..)

(٢) ظَهَر الكتاب أوّل مرة بترجمة الدكتور محمد يوسف عدس سنة ١٩٩٤، ونال به الأستاذ علي عزّت بيغوفيتش جائزة الملك فيصل الدولية فى السنة نفسها.

(٣) بعض أفكار المفكر (ع.ع.بيغوفيتش) عصية على الاستيعاب، إنْ لم يَكن الذِّهن حاضِراً عندَ قراءة السياقات وطبيعة توظيف الكاتِبِ للمفاهيم وفهْمه الشخصي لبعض القضايا. من ذلكَ أنَّه يُقابِل (النظام الإسلامي) بما يُعَرف حاليًّا بـ(الديمقراطية)، ولكن لا مِن جِهة الشكل؛ بل من جهة الجوهر والإجماع. ولا يَستفيض في شَرح هذه المسألة، بل يترك القارئ لمصيره. إنَّ النظام الإسلامي حالَ إقامته يمثِّلُ أسمى فِعْل للديمقراطية. الديمقراطية التي تُجسِّد هي الأخرى الترجمة العملية والفكرية لأحاسيس الشعب وتطلعات المجتمع، والتي يجِبُ أنْ يَسْعى الحكام لها.

وتمثُّل سُبُلِ التمكين الواقعي لها، غير أنَّ (بيغوفيتش) يَحصُرُ على عهدِهِ (أيْ ثمانينيات وتسعينيات القرن العِشرين) أبْرَز قضايا النظام الإسلامي في: الفرد والجماعة[١] - المساواة بين الأفراد[٢] - أُخُوّة المُسلمين[٣] - وحدة المسلمين[٤] - المِلْكِية[٥] - الزكاة والرِّبا[٦] - مبدأ الشورى[٧] - لا إله إلّا الله[٨] - التربية (التعليم[٩] وحرية الضمير) - الإسلام والاستِقلال[١٠] - المرأة والأسرة - العلاقات بالمجتمعات الأخرى. إنَّه إزاءَ هذه القضايا يضع في الحُسبانِ تبدُّل الظُّروف والمعطيات والسياقات التي لا تَسمحَ بالتطبيق الحرفي لكل تعاليم

(١) مِن أمارات الإخفاق التربوي في المجتمعات الإسلامية من وُجهة نَظر (علي عِزَّت)؛ فُقدان شعور المُسلِم بوجود الآخرين، وغياب التضامنات الاجتماعية بين الفرد والجماعة.

(٢) مراراً ما يُؤكِّد أنَّه ليس ثَمَّة إلا حَقيقتان بارِزتان وهامّتان: وحدانية الله سبحانه والمساواة بين الناس جميعاً.

(٣) ليست المصالح المُجَزَّدة والمنافِع العاجِلة هي التي تسود في المجتمع الإسلامي؛ بل روح الأُخُوَّة وشعورها الصادق العميق والتراحم الأخوى بين فئات المجتمع.

(٤) الإسلام وعقيدة المسلم ليست هي جِنسيته في نَظر (علي عزّت بيغوفيتش)، فالإسلام أسمى من ذلكَ بالنسبة لنا كمُسلِمين. كأننا هنا إزاء رَدٍّ على أفكار الأديب المصري (سيد قُطب) في كتابه المثير **«معالم في الطَّريق»** حينَ حديثه في فصل من فُصول الكتاب عن أنَّ عقيدة المسلم هي جِنسيته. وهو ما يتعارَضُ مع مفهوم المواطَنة في الدولة الوطنية الحديثة.

(٥) إنَّ ما يُمكن تحقيقه في ظِلّ حُكْم إسلامي عامِلٍ بمُقتضيات النظام الإسلامي في التشريع والتنفيذ والسياسة: إعادة التوزيع العادل للثروات والموارد، لما فيه مصالح العباد. يؤكّد المفكّر البوسني (بيغوفيتش) على أنَّه لا وجودَ لمِلْكِية مُطلَقة في الإسلام، ولو كانت خاصّة، وأنَّ الشريعة تضبط الملكية الخاصة باستِعمالها لما فيه مصلحة الصالح العام.

(٦) يرى (بيغوفيتش) في الإثراء غير المشروع وكل أنواع الدخل بدون عَمل وغياب مسؤولية الأفراد بعضهم على بعض في المجتمعات الإسلامية: أموراً منافِية للمفاهيم والمعايير الأخلاقية الإسلامية، وتَضْربُ حُكْم ومبدأ الزكاة فى مَقْتَل.

(٧) هذا نظام سياسي واضح في الإسلام. ويرى (بيغوفيتش) أنَّ الدين الإسلامي لا يُقِرُّ أيّة سلطات لها صلاحيات واسعة جدًّا وإلى ما لانهاية وتجلِس على امتيازاتٍ وحقوق مُطلَقة.

(٨) تمجيد وتقديس الأشخاص والزعماء في الشرق والغرب أمْرٌ يُثير استِغراب الكاتِب، وهي في العالم الإسلامي أشدُّ إثارة للاستِغراب، كونُها تُخيي عبادة الأصنام من جَديد، وتَصنع طواغيتَ بشرية، في حينَ لا يكون التمجيد والإعلاء والتقدير والتقديس إلا لله ربّ العالمين، ولا إله إلّا الله من مُقتضياتها؛ أنْ تتحرَّر إرادة المخلوقين وألا يُعلوا أحَدًا فوقَ قيمته، لأنَّ الله -بتعبير الكاتِب- **«وحدَه القادِر على تقدير أفْضال الأفراد الحقيقية»**، انظر: **«البيان الإسلامي»**، مرجع سابق، ص: ٣٧.

(٩) في عِبارة حاسمة يُجزِم الأستاذ علي عزّت بيغوفيتش قائلًا: **«.. التعليم بَعْدَ الوحدة؛ هو العامل الحاسم الثاني للتحديد العاجل للعالم الإسلامي والنهوض به من وضْعِه المتخلّف في الوقت الراهن»**، نفسه، ص: ٣٨.

(١٠) كل استِقلال ترابي - سياسي لا يكونُ نتيجة استِقلال روحي وفكري للمجتمع ولا يُحقِّق للحرية؛ فهو استِقلال منقوص ومردود في رأي الأستاذ (ع.ع.بيغوفيتش).

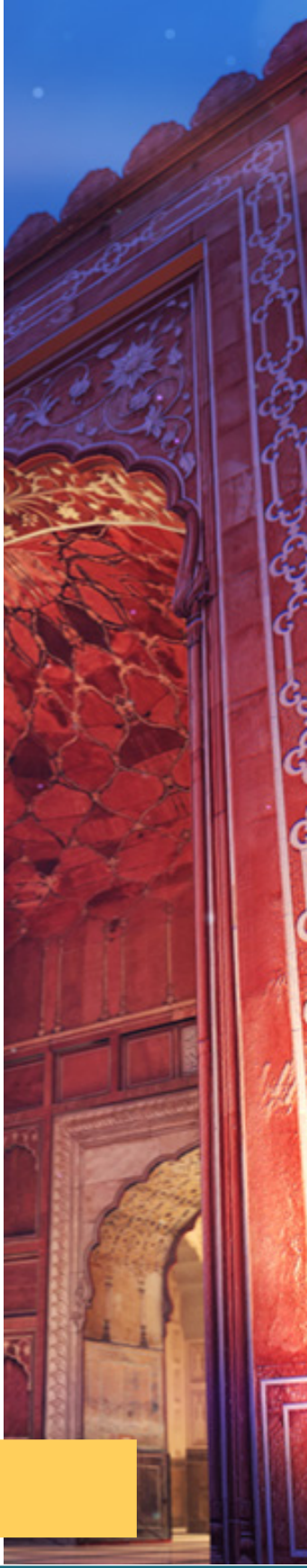

ومبادئ الإسلام كما كانت في ماضي العالم الإسلامي، وبالتالي فقضايا زَمنِه هي عنده بمثابةِ مبادئ، والمبادئ منها ما لا يتجزَّأ ولا يقبَل التَّبديل، ومنها ما يُؤخَذُ منها عندَ الشروع في تنفيذِ السياسات والاقتصادات وأساليب الحياة. إننا إزاء كاتِبٍ يحمِلُ هموم الأجيال، أيَّ أسلوب سَتَتّخِذ في تدبير حياتها بالنظر إلى كونها مِن العالم الإسلامي وابنةُ عالَمها المأهول بحضارات وأمم وعاداتٍ وضغوط؟ كيفَ تُقيم التوازن بين المبادئ والمتغيرات؟ كيف تَكون وتصيرُ تعاليم ومبادئ الإسلام -التي جَعلها الكاتِبُ في عناوين دالّة وذات حمولة لها أثر في التاريخ ولها خاصية استِدامة هذا الأثَر في التاريخ- زاداً ومصدر إلهامٍ لتقدّم المسلمين، بل الإنسانية جمعاء؟

إنَّ هذا الهَمَّ، والإسعاف الفكري الذي يُقدِّمه (علي عِزّت) في «ندائه»؛ لهُو حَقًّا من أنْصَعِ ما يكونُ من مسؤوليات المُثقَّف، ومما يُبينُ عَن وجْهَ الفقيه الإستراتيجي في شخصية (بيغوفيتش). فالتطرُّقُ لهذه المواضيع؛ وراءَهُ ثقافة فِقهية وشَرعية وسياسية واطلاع واسعٌ على كُبرى النظريات الاجتماعية والعلمية في التاريخ، وخبرة بالشأن التربوي، ومعرفة بالأديان وقُرْبٌ من الواقع المَعيش وقُدْرَةٌ على الاستِشراف.

ولما كانتِ الصرخة/النداء إيذاناً بضرورة الانتقال لعهد النهضة الإسلامية، تجاوُزاً لحالة التخلُف والاستِبداد والتحلل من تعاليم ومبادئ الدين المُنَزَّل، وتفعيلاً أمْثَل للنظام الإسلامي في حياة المجتمعات ذات الأكثرية المُسلِمة -والخطاب موَجَّه من فَردٍ في العالم إلى الإسلامي إلى هذا العالم الكبير-؛ كانَت «النهضة الإسلامية» كأفُقٍ خليقَة بأَنْ يُفرِدَ لها الكاتِب مباحثَ ونصوصاً من «كُتُبِهِ»، وكذلكَ كان؛ بجَعْل قضية «النهضة الإسلامية؛ ثورة دينية[1] أم ثورة سياسية» مَدارَ القولِ عن الطريق الطويل إليها. وجديرٌ بالذِّكر أنَّ مسألة النهضة الإسلامية ودراسة أسبابها وعوامِلها

(١) يُذكَر أنَّ الكاتِب اتَّخَذ للفصل/المقالة السابعة من كتابه **«عوائق النهضة الإسلامية»** عنوان: «نحو ثورة إسلامية».

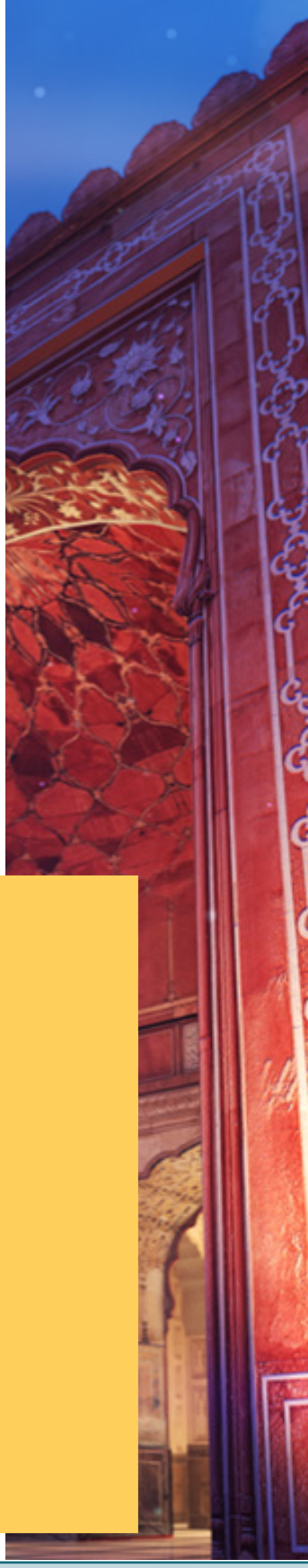

وإخفاقاتها وحاجة الوطن العربي والعالم الإسلامي إليها متكرِّرة الحُضور في كتابات الرجل، فقدَ عَقَد لها مباحِثَ في كتاب «عوائق النهضة الإسلامية»[١]، وتَعرَّض لها في بعض مضامين كتابه «هروبي إلى الحرية: أوراق السجن»[٢]، ويخصُّها بوافر الشرح والتِّبْيان في «البيان الإسلامي»[٣]، واضِعًا القارئ والمسْلِمَ والحركات الإسلامية أمام جوابٍ حاسِمٍ عن سؤال تحقيق هدَف قيام النّظام الإسلامي المتمثِّل في وحدة الدين والنظام الاجتماعي - السياسي: أيَكونُ عن طريقِ تجديد ديني[٤] أم ثورة سياسية؟ وأنَّ النهضة في العالم الإسلامي يستحيلُ أنْ تكون دون تجديد ديني ولا سبيل لبلوغِها مداها دونَ ثورة سياسية مواكِبة.

مُوازَنة ومعادَلة صعبة، لكن الفهْم في أفُق التطبيق هو هاجِس (بيغوفيتش)، بل ليس من المبالغة القول إنّ هاجِسَه الأكبر: أيَعي المسلمون أنَّ استهلالَ عَهْد النهضة لا يكون ولن يتمّ إلا بالبدء بتطهير داخلي، وتَسليم عَملي بأنَّ القوة تبدأ بالصمود والمثابرة، والهزيمة تبدأ بالإخفاق المعنوي، ثمّ

(١) (بيغوفيتش) علي عِزّت: **«عوائق النهضة الإسلامية»**، جُزئين، ترجمة حسين عمر شباهيتش، منشورات الفرقان، الطبعة الأولى ١٩٩٧.

(٢) (بيغوفيتش) علي عزّت: **«هروبي إلى الحرية: أوراق السجن ١٩٨٣ - ١٩٨٨»**، صدرت الطبعة الأولى من الكتاب سنة ١٩٩٩، ثمّ الطبعة الثانية بترجمة الأستاذ إسماعيل أبو البندورة، وطبعة ثالثة بترجمة الأستاذ محمد عبد الرؤوف، عن مدارات للأبحاث والنشر سنة ٢٠١٦.

(٣) ثمة طبعة أخرى للكتاب قامَت بترجمة العنوانَ إلى «الإعلان الإسلامي» بدَل «البيان الإسلامي» (MOJ BJEGUSLOBODU)

(٤) التّجديد الديني شرطٌ لازم وأوّل للنظام الإسلامي في نظر الكاتب، لكن ما الذي يقصده بالتجديد الديني هنا؟ يقول الدكتور علي عزّت بيغوفيتش: **«إنّ التجديد الديني هو الوعي الواضح للغاية الصحيحة للحياة، أيْ لما من أجْلِه نعيش، ولما مِن أجلِه ينبغي أن نعيش، وتلكَ الغاية هل هِي مُستوى الحياة للفرد أم للمجتمع؟ (..)، إنّ التجديد الديني معناه (نَشر الإسلام) بين الناس الذين يُطلِقون على أنفسهم اسم (المسلمين)، أو يُطلِقه غيرهم عليهم. إن نُقطة الانطلاق هي نَشْر الإسلام، هي الإيمان الراسخ بالله والإخلاص في ممارسة وتطبيق القواعد الدينية والأخلاقية على نَحو صارِم. والعنصر الثاني للتّجديد الديني هو الاستِعداد للقيام بالواجِب الذي يفرِضه الوعي بالهَدَف، فالتجديد الديني خاصية للسُّمُوّ المعنوي والحماسة والنشوة وغَلَبة الروح على الأشياء. إنه حالة مِثالية يعيشها الناس ويذوقونها فيُصبِح العاديون منهم قادرين على أعمال غير عادية من إقدام وتضحية بالنّفس. إنّ التجديد الديني خاصية جديدة للإيمان والإرادة تُلغَى فيها المعايير المألوفة للمُمكن، ويَسمو فيها الفرد والجماعات فَجأةً إلى درجة التضحية بالنّفس في سبيل مُثُلِهم العليا. وبدون هذه الحالة الجديدة للروح والشعور؛ يستحيل القيام بأيّ تَغيير صحيح وحقيقي في حاضر العالم الإسلامي»**. نفسه، ص: ٤٨ - ٤٩.

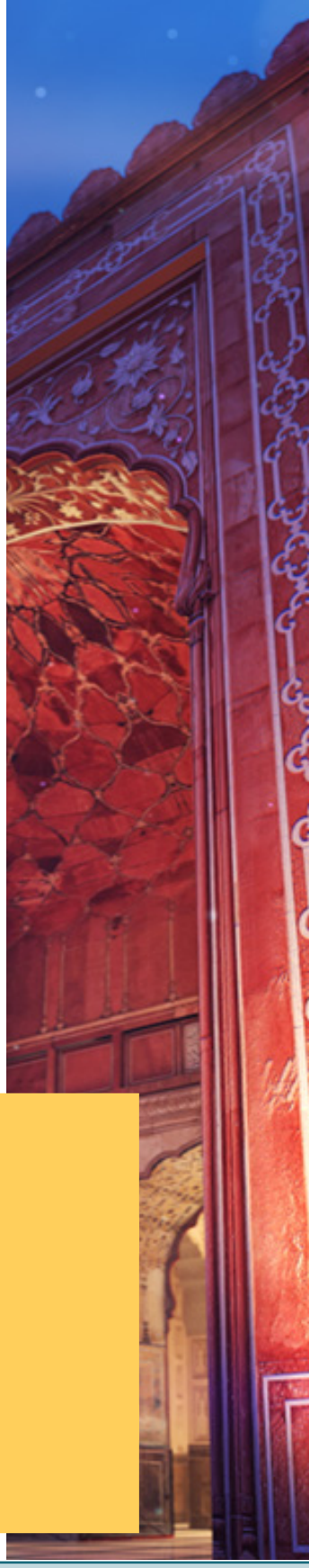

التهيّؤ لتنفيذ التجديد الدِّيني[1] والثورة السياسية كي يقوم الشعب في كل قُطر مُسلِم برسالته في التَّاريخ؟ أيَعَـوْنَ أنَّ مِن الغَباء التّعلُّق بالطّريق الأقصر لتشيد وإقامة النظام الإسلامي في الواقع الإسلامي كـ(الاستيلاء على الحكم مِن أجْل السلطة)، أو(الظَّفَر بالحكم عن طريق الانتخابات)؟ أهُم واعون أنَّ هذا الطريق -اليوم وغداً- مُجرَّد مُعضِلة وحيرة وابتِلاء[2]، وأنّ الطريق الطويل إلى النهضة يبدأ بالتربية وجهاد النفس ودعوة المجتمع للأخلاق؟

أفكار (ع.ع. بيغوفيتش) صافية، لا تُشوِّشها مقولات حداثية ولا تطغى عليها نُزوعات ماضَوية جامِدة، والأهم من ذلكَ أنَّ أفكارهُ تتَّسِم بخاصية «الواقِعية»، الواقعية السياسية والعِلمية؛ فأنتَ ذا تُطالِعَ مواقِفه ورؤاه إزاء تقديمِ الإصلاح الفردي والمقاوَمة التزْكَوية[3] وتربية النَّشء وتقويَة دِفاعات المجتمع ضدّ الروح الانهزامية قَبْل الطموح للسلطة والتعلُّق بالحكم أو الإتيان إليه عن طريق الانقلاب. ويَعود -دونَ أنْ يُعلِنَ أو يَشْعرَ القارئ بأنَّ في الأمر استِدراكاً- ليؤكِّدَ بأنَّه لا حَرَج من أنْ تبدأ الحركة الإسلامية بالحُكم إنْ كانت تمتلك أقداراً من القوة المعنوية والعددية تُمكِّنها مِن بناء الحكم الإسلامي وبالتالي إعمال التَّجديد الديني الذي هو شرْط لازِمٌ وأوَّل للنظام الإسلامي الذي عليهِ مَدارُ القول. واقعِية لا تحولُ دونَه وإجراء نَقْدٍ شديدٍ لتجربَتيْ (الجمهورية

(١) يَرفع الكاتب مهمة التجديد إلى مُستوى شخصي، أي ارتباطه بالفرد، ويُجانِب المقولات الانهزامية والانتظارية التي تقوم على انتظار حدوثِ تجديد ديني خارج الذات، في المحيط، فيقول في هذا المعنى: **«والتجديد الديني حسَب حَدِّه وتعريفه؛ واجِبُ بَدْءِ المرء بنفسِه وبحياته الخاصة»**، نفسه، ص: ٤٩.

(٢) يَلْفِت الانتباه بتعليق صارم وجازِم ويحسِم جَدل قيام الحكم الإسلامي والنظام الإسلامي عن طريق السلطة أو الانقلابات أو العمل من موقِع الحكومة؛ فيقول: **«فالتاريخ لا يَعرِفُ أيَّ انقلابٍ صحيح انبَثَق من السلطة، فإنَّ كلَّ ثورةٍ بَنّاءَةٍ بَدأت بالتربية، وكانت في جوهرها مُجتمَعَ دعوةٍ إلى الأخلاق»**. وفي نص آخر يقول: **«إنَّ فكرة الاستعانة بقوة أو بسلطة في كل الأحوال تَرْجِعُ إلى مَيْل الإنسان الفِطري إلى التهرّب من أُولَى مراحل الجهاد وأصْعبها؛ ألا وهي جهاد النفس. إنَّ القيام بتربية الناس أمْرٌ صعب، وأصعب منه تربية المرء نفسه»**، نفسُه، ص: ٤٩

(٣) مصطلح **«المقاومة التزكوية»** طالَعه الباحِث في الإصدار القيم للفيلسوف المغربي (طه عبد الرحمن): **«روح الدين؛ من ضَيق العلمانية إلى سَعة الائتمانية»**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ٢٠١٢.

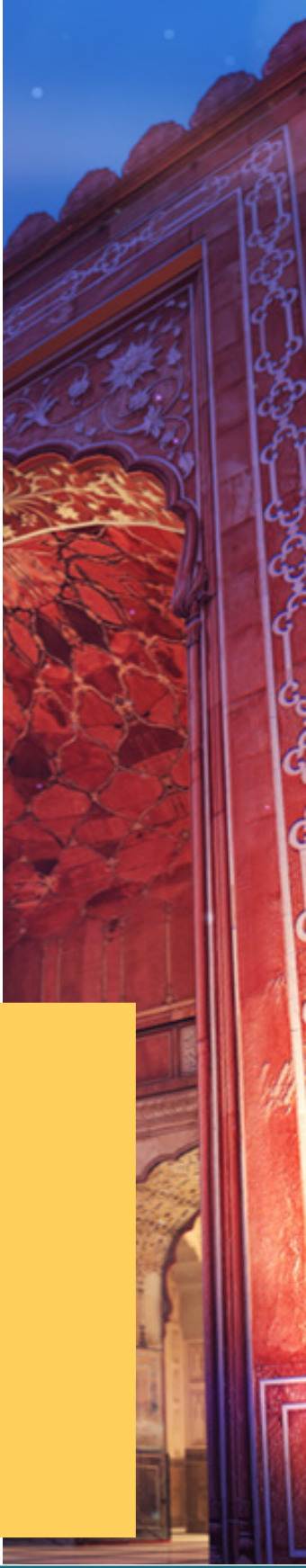

الإسلامية الباكستانية) و(الجامعة الإسلامية)، إذ كلاهما فشِلَتا وفُشِّلتا كذلك في تحقيق الهدف التاريخي (متمثِّلًا بالأساس في قيام النظام الإسلامي والوحدة والنهوض بالمجتمعات).

واقعيةُ الرجُلِ تتجلَّى أيضًا في سَعة إحاطته بإشكالات وهموم وعذاباتِ أَكْثَرِ مِن بُؤرةٍ توتُّرٍ في العالم الإسلامي، فيُنَافِر عن الحبشة وكشمير وفلسطين[1] وبورما والفلبين والقرم، مُسائِلًا «واقعية» مَن أسماهم «الضعفاء المستكينين بين صفوفنا»[2] الذين وَجَّهُوا قِبلة واقعيتهم صوب الهزائم والاستكانة والرّضا بالذّل والتجزئة والنزعة القومجية[3] الضيقة؛ فكانت الكارِثة. منافَرَةٌ علمية وسياسية وواقِعية لَها مَا يُعضِّدها مِن واقِع المجاهِد البوسني المَعيش (عِزَّت بيغوفيتش)، فالرجل قد خاض معركة الاستِقلال، وكافح في سبيل الوطن، ونزَل الميدان مَعية جنوده وقوات الدفاع البوسنية في دفاعها عن النفس والعِرض والأرض ضدّ القوات الكرواتية والصِّربية الغاشِمة، وقرَّر عدم الاستِسلام واستَمات في حِماية حقّ بَلده في الحرية والاستِقلال، وقاد ملحمة نِضالية مجيدة. وهو ذاتُه، داعية اللَّاعُنف وحامي السَّلام في الجمهوريات اليوغسلافية، والحريص على دماء المكونات العرقية في الجمهورية البوسنية.

(١) مواقف المكافح البوسني الأستاذ علي عزّت بيغوفيتش مشرِّفة ولا تُنكَر، ولا يكاد الباحث يقفُ على كِتابين وثلاث من كُتُبه؛ إلا ويجِد حضوراً لقضية العلاقة مع المسيحية واليهودية، يُؤسِّسُ عليها منطِقاً في فهْمِ طبيعة تعامُل القوى الصهيونية مع العرب والمسلمين، وموقع فلسطين في العلاقة بينهما. وكثيراً ما يأتِي على ذِكْر قضية فلسطين ضِمن سياق إشكالية جوهرية في الوطن العربي والإسلامي، إنها إشكالية الوحدة. وهو إلى ذلك؛ لا يُقلِّلُ من شأنِ الوحدة والاتحاد العربي ودورهما في صدّ العدوان الإسرائيلي، ولا يعتبِر فلسطين وقضيتها للفلسطينيين. ويرى أنَّ أيَّة مساومات أو مفاوضات تُؤدّي إلى التنازل عن حقوقنا الجغرافية والتاريخية في أرض فلسطين، وتُفرِّط في حقوق أبنائها وكفاحِهم؛ خيانةٌ عُظمى، ستؤدِّي لا محالة إلى تَهديم النظام الأخلاقي الذي أُقيمَ وبُنِيَ عليه الوطن العربي والعالم الإسلامي.

(٢) **«البيان..»**، مرجع سابق، ص: ٥٤.

(٣) في حُكْمِه على القومية العربية، وبالأخص قومية الطلائع المثقفة في سوريا ومسيحيي لبنان وحركة أتاتورك وبعض فروع حزب البعث؛ وَصَفَها بأنها كانت دائمًا فكرة مستورَدَة، في حين كانت الجامعة الإسلامية كفكرة تنبع دوماً من أعماق قلوب الشعوب الإسلامية، وعليه؛ فبالنظر إلى هذا المعطى النفسي المجتمعي؛ فإن هاته الشعوب لم تكن لها وليست لها ما أسماه بـ«الموهبة» للتعلق بالقومية.

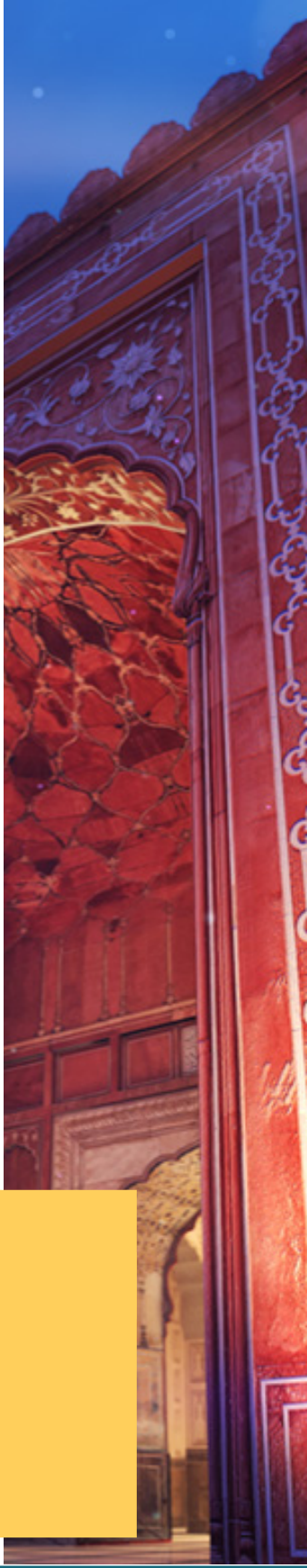

نداء (بيغوفيتش) لأمَّةِ الإسلام مِن أجْل استئناف دورها الحضاري وأداء رسالتها التاريخية للوصول إلى شطّ النهضة الإسلامية؛ تتخلله لحظات تَمَهُّلٍ وتَعَقُّلٍ وشَغَبِ السُّؤال، تُرَى؛ في ظِلِّ عالَمٍ متغيِّرٍ يَعوج ويَموج بالنظريات والطرائق السياسية وأشكالٍ متعدِّدة لتنظيم الدولة؛ ما الشكل والنظرية الأنسب والقوالب السياسية الأنفع لتحقيق النهضة الإسلامية[1]؟ هل الاحتذاء بما هو قائم في حاضِر العالم الغربي؟ هل الفحص والتنقيح بين الحسن والسيّئ في النُّظم المجتمعية القائمة لاختيار ما يلائم ويناسب التجلّي والتحقُّق الواقعي للنهضة الإسلامية؟ أمْ أنَّ خِبرة الأمة ووعْيَها بخصوصياتها كافٍ لاجتِراحها مساراً وأشكالاً وقوالِب جديدة؟

جواب (عليٍّ) كامِنٌ وظاهِرٌ في تَمَثُّل ما أسْماه بـ«صراحة الإسلام العملية»[2]، إذْ لا إفراطَ في الإشادة بمميزات الشعارات والعبارات والنظريات القائمة، ولا غُلُوّ في تقزيمِ وتحجيمِ آثارها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. فاعتدالَ الإسلامَ وعقلانيته التي تَرى في الاختيار بين الرأسمالية والاشتراكية معضِلة خيالية ومُختَلَقة لا غير، وعَدالته كذلك تدعو العالم الإسلامي إلى دراسة التجارب الرأسمالية والاشتراكية[3] جَرْحاً وتعديلاً وتعديداً للمكْتَسَبات، وعدم القَفْزِ على الوقائع والتراكم العالمي الذي حقَّقَه الاجتِماع البشَرِي ليكون الطريق إلى النهضة الإسلامية واعِياً بنوعِ القوالِب والنُظم الجديرِ تصديقها والعمل بها، ومتجاوِزاً أعطاب النظريات وإخفاقات الفِعْل الحضاري النهضوي

(١) تعني النهضة الإسلامية وِفق منظور علي عزّت بيغوفيتش، ذلكَ التحول الأخلاقي والثقافى والسياسى الشامل للشعوب الإسلامية.

(٢) **(البيان..)**، مرجع سابق، ص: ٦٢

(٣) باعتِبار انقسام العالَم زَمنئذٍ إلى مُعسكرين: رأسمالي واشتِراكي، وغَلَبة هاتين النَّظرتين على المجال السياسي العام والحياة الفكرية والاجتماعية، وكانت لهما تأثيرات بيّنة على العالم الإسلامي. وبالتالي فالأستاذ علي عِزَّت بيغوفيتش يحصر القول هنا عن هذين النموذجين، ويُعدّد إيجابياتهما ومساوئهما، ويَحُضّ على ضرورة الاستِفادة منهما وأخْذِ العِبَر. وتدلُّ قراءاته النقدية التي أعمَلها تجاه أعمال ونظريات الفيلسوف (كارل ماركس) على قَدْرٍ واسع من الاطلاع والدِّقة في فهْم واستِيعاب كُبرى النظريات ونَقْدِ أطروحتها وما آلت إليه.

الغربي، وبانِياً تحقيقها (أي النهضة) على أرضية أشكالٍ وقوالِب ونُظُمٍ وطرائق تصريف وتفعيل مناسِبة.

✸ خاتمة.. الطريق الطَّويل إلى النهضة:

إنَّ إقدام المفكِّر البوسني الكبير (علي عِزَّت بيغوفيتش) على دراسة أسباب الانسداد الثقافي في العالم الإسلامي، وانْشِغاله الفكري والسياسي والثقافي بالمعضلات الذاتية للنهضة الإسلامية (المُجهَضَة والمُؤَمَّلة) ليُعَدُّ بِحَقٍّ جُهْداً هائلاً وغِنًى فِكْريًّا وروحياً فائراً زاخِراً في جزيرة مِن الفقر الروحي والوهْم الأيديولوجي والجذْب الفكري والعوائق المنتشِرة يَمْنةً ويَسْرة. فالنصوص التي استَوْقَفَتنا، نُصوصٌ مَهمومة بقضايا أمَّتِها، مسكونة بتطلعات وآمال الأجيال، ومُنْشَدَّة بأصالة نادِرة إلى المرجعية العليا للإسلام وإلى السَّنوات المُضيئات من تاريخنا، وواقِعية إلى حَدِّ الاعتِمادِ على لُغة وخطابٍ رفيعين، صريحين، وتوجيهات للقادة والنّشء والأجيال القادِمة تضعُهُم أمام مسؤولياتهم التاريخية ولا تُغْرِيهم بأحلامِ نهضة إسلامية لا شروط لها ولا قابِليات ولا استِعداد... ويُذكِّر الأمَّة بضرورة الاستِناد إلى الأخلاق الإسلامية التي كانَ لِطُولِ حُضورِها في تاريخنا تأثيرٌ ولا يزال، وإلى حقيقةِ كوننا كُنَّا ذوي تاريخٍ أمَّةً قويةً متماسكةً موحَّدةً متعددةَ الأعراق والقوميات لكنها متضامِنة عاطفيًّا، وكِلا هاتين الحقيقيتين وغيرها مِن الحقائق، تَعني فيما تَعنيه -حالَ الوعْي والإدراك الجَمْعِي بِها- نَقْلَ الوَعد الصّادِق بتَحَقُّق النهضة مِن مُستوى الحلم والأمَل، إلى مُستوى التنزيل والعَمل.

تطوان في: ٢٤ من نوفمبر ٢٠١٨

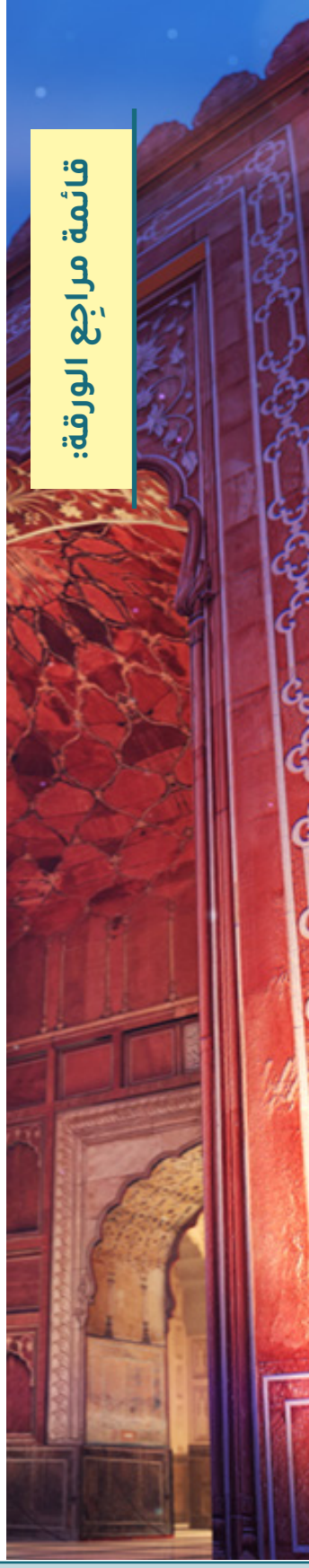

قائمة مراجِع الورقة:

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع
- (بيغوفيتش) علي عِزّت: **«البيان الإسلامي»**، منشورات الراية، مطبعة الساحل، الرباط، الطبعة الأولى 1994.
- (بيغوفيتش) علي عِزّت: **«عوائق النهضة الإسلامية»**، جُزئين، ترجمة حسين عمر سْباهيتش، منشورات الفرقان، الطبعة الأولى 1997.
- (بيغوفيتش) علي عزّت: **«هروبي إلى الحرية؛ أوراق السجن 1983 - 1988»**، صدرت الطبعة الأولى من الكتاب سنة 1999، ثمّ الطبعة الثانية بترجمة الأستاذ إسماعيل أبو البندورة، وطبعة ثالثة بترجمة الأستاذ محمد عبد الرؤوف، عن مدارات للأبحاث والنشر سنة 2016.
- (بيغوفيتش) علي عِزّت: **«الإسلام بين الشرق والغرب»**، ترجمة محمد يوسف عدس، مطبعة مؤسسة العلم الحديث، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1994، منشورات مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا للنشر والإعلام والخدمات.
- (الكواكِبي) عبد الرحمن: **«طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»**، نسخة إلكترونية، بدون تاريخ الطبعة.